رؤية فى ديوان "مازلت أقول"

للشاعر نصار عبد الله

د/ أحمد يوسف خليفة *

د/ نصار عبد الله الشاعر عرفته بإحساسه المرهف وفكره الثاقب ، وهو صاحب الكلمة الهادئة والهادفة فى صدق من الشعور والتأمل .

وهو قد لايألف ما يألفه الآخرون من رضى وصبر على واقع الحياة وضروراتها المعتادة ، أو قد لاينسجم مع كثير من الأنماط الإجتماعية التى فرضت نفسها على الواقع الإجتماعى والسياسى والثقافى ، لذا فهو ثائر متمرد – فى كثير من معطياته الشعرية – فى صدق وجهر ، ومجال ثورته قضايا الإنسان فى معانيها الشمولية ولكن تلك الثورة من خلال رؤية نفسية وفلسفة ذاتية ، لا من خلال واقع سياسى أو حزبى ، ولعله بهذا احتل مرحلة جديدة متجاوزا تلك المرحلة التى أشار إليها الدكتور لويس عوض فيما كتبه : "أهم ماتميز به صوت نصار عبد الله يومئذ عن أصوات شعراء ذلك العصر ، الكبار منهم والصغار هو انصرافه عن الالتزام الإجتماعى والقومى ، وانصرافه عن الالتزام بالوضع الإنسانى أو بقضايا الإنسان الكلية وأقانيمه ، وهو عودته إلى ارتياد مناطق النفس التى كان قد هجرها

---

* مدرس بقسم اللغة العربية بكلية الآداب بسوهاج

الشعراء ، طوال عهد عبد الناصر" (١) .

فى هذا الديوان لم ينسحب عن واقعه ولم ينطو داخل صومعته النفسية كما كان فى مرحلته السابقة ، مرحلة النكسة ، بل نجده يختمر مع تجارب فلسطين والأرض المحتلة والحرية مع الفقراء ، ضد تجاوزات الحكام وسماسرة المناصب وتردى القيم .

وحين تبدو روح الثورة ورفض الواقع الاجتماعى فى صورته المتردية وأشكاله المتدنية بفقره وحرمانه ، وخوائه الداخلى ، ولم يكن هذا الرفض لونا من ألوان الانسحاب أو السلبية ، بل يبدو فى هذا الديوان لم ينسحب عن واقعه ولم ينطو داخل صومعته النفسية كما كان فى مرحلته السابقة، مرحلة النكسه ، بل نجده يختمر مع تجارب فلسطين والأرض المحتلة والحرية ومع الفقراء ، وضد تجاوزات الحكام وسماسرة المناصب وتردى القيم .

وفيه تبدو روح الثورة ورفض الواقع الاجتماعى فى صورته المتردية وأشكاله المتدنية بفقره وحرمانه وخوائه الداخلى ، ولم يكن هذا الرفض لونا من ألوان الانسحاب أو السلبية، بل يبدو فيه دور للشاعر وجهد منه فى محاولة تقويم تلك الصور والأشكال مع صبغة شاعر متأس غريق فى وحل الآلام والحسرات .

أولى قصائد الديوان (مازات أقول) تؤكد مشاعر الإيمان والصبر على تحقيق الهدف، وذلك من خلال توظيف الفعل (مازال) التى تدل على استمرارية الحدث ، والفعل المضارع (أقول) بما له من دلالة التتابع والمعاناة .

مازلت أقول

ماذا لو حصد الناس الورد ، ولو زرعوا

شوك العاقول

فالورد رمز معادل للخير والجمال ، والعاقول رمز للقبح والشراسة والرجعية

---

(١) د. لويس عوض : دراسات أدبية – دار المستقبل ط الأولى سنة ١٩٨٩ ، ص١٩٥ .

والتردى إلى حياة الجمود والعزلة ، وليس حصد الورد إلا إماتة للقيم ومبادئ الحرية، كما أن زرع الشوك غرس للشر وتأكيد للحدث السالف باستعمال اللون المقابل من الصورة ، ثم تبرز صور التناقض وتسود السلبيات :

كنت أقول فلا تندهشوا حين أظل أقول
إنا فى زمن يصبح فيه اللامعقول
هو المعقول
يتساوى فيه الكاذب بالصادق
والفاسق بالعاشق
والقاتل بالمقتول
وأنا مازلت أقول

والشاعر فى إبرازه لصور التردى يحاول أن ينتزع إيماننا بأن هذا هو المألوف والمعتاد فى حياتنا فلا عجب فى ذلك .

وحين تبدو ملامح الإصلاح قد تهدأ ثورة الغضب ، ولكن أنى لنا ذلك ، إذ أن هذا الزمن ليس بالقصير ، والشاعر لم يتركنا إلا فى مواجهة صريحة مع تلك المأساة ، وأشدها وطأة ما يعانيه أبناء الوطن من فقد للحرية ، والحياة فى ذله وغبن:

هذا زمن سيطول
تحنى فيه يا أحبابى هامتكم
تقصر فيه قامتكم
تقصر حتى تصبح فى أرجلكم
تقصر ، تقصر ، وهو يطول ، يطول ، يطول

وتردى الواقع ، وتنكر السوى من القيم تتأكد صوره وتتابع بأشكاله التعبيرية المتعددة :

قضى الأمر ، لعن السائل والمسئول

لعن الشاعر حين يقول الشعر
لعن الزارع إذ يرتاد الدرب الوعر
لعن الفارس حين يصول وحين يجول

ومجيئ الأفعال مبنية للمجهول تشير إلى العموم ، فلم يسند الحدث إلى شخص أو زمرة ، بل تركنا فى عمومية ، كما قدم إلينا نماذج اجتماعية لفئات صبت عليها اللعنات ، وأجدر بها أن تكرم ، فالسائل نموذج للفقراء والمنكوبين ، والمسئول نموذج للبر والخير والشاعر نموذج لنداء الحرية، والزارع نموذج للبناء والرخاء ، وكيف بالفارس وهو رمز للتضحية والمجد وقد صبت عليه اللعنات أيضا ؟

إذن لمن هذا الزمن ؟ ومن أبطاله أو أصحابه ؟ ولمن المجد اليوم ؟

تأتى الإجابة فى سخرية حادة ، لأصحاب الشعارات الجوفاء ، لقطاع الطرق الذين يرهبون الشرفاء ، للمنافقين ذوى البسمات الزائفة ، للذين يأكلون على كل الموائد، ويشربون فى كل الكؤوس ، أما الشرفاء ، أما الشعراء فقد أصبحوا عصفاً مأكولاً.

كانت النهاية المأساوية تضمينا ذا توظيف جيد ، ولم يغب عن التجربة المد الإيقاعى ورتابته الذى يوحى بتتابع مشاعر الحزن والأسى فى الأشكال التعبيرية (أقول ، سيطول ، مقهور ، مغلول ، موتور ، مأكول) .

أما قصيدته (ألقيت في اليم قلبى) فهى من الشعر العمودى ، وتبدو فيها مظاهر التضحية والرضى بالمصير على الرغم من رؤية واضحة للآلام . وفى عبارات خبرية تحمل حسرات الألم وأوجاعه تتمثل لنا التجربة فى صورة معركة أسلحتها السهام والسيوف ومواجهة حقيقية من خلال ضمائر المتكلم والخطاب التى تشير إلى التصاق التجربة والتعامل معها عن قرب :

مضيت غير هلوع　　من السيوف الفواتك
أو الحراب اللواتى　　طوين فى طياتك

أو السهـام بقـوس شـدت إلى جناتـك

- - -

إن مت فيـك فهـذا من بـعض هباتـك
أو لم أمت فطموحا إلـى ذرا منـّاتـك

ولعل الشاعر يسترجع صورة ذلك الصعلوك الجاهلى عروة بن الورد الذى يفخر فى إحدى تجاربه بقوله :

فذاك إن يلق المنية يلقها حميدا وإن يستغن يوما فأجدر

ثم يأتى واقع التجربة ، ومفتاح سرها فيما يحمله من سر مكتوم ، يحاول الإفصاح عنه ، والوصول إلى ثمرته فى معاناة تنم عن غربة وألم :

وهات موتى فموتى توحد بصفاتك
يا قاطعى عن صلاتى وواصلى بصلاتك
يامبدعى من حروف مسكوبة من ذواتك

وفى ثورة من الضيق وحدة الغضب يتفجر الحكم العام على الحياة والكون بالتمزق أو الخلل كما فى قصيدة (الكون اختل) ، وهى تجربة يستعيد فيها الشاعر ماضيه وذكريات حبه وأيامه النضرات ، ويأسى للحاضر الجريح بسهام التنكر والإهمال ، التى مزقت روابط الحب ، وباعدت بين الأليفين ، وأبرزت مشاعر الاغتراب والطرد النفسى :

الكون اختل
من فينا رب القلب
ومن فينا المحتل ؟

وقد تكون العودة إلى الماضى أو الاحتكام إليه لونا من العتاب ، لاسيما التصاقه ببعض المشاهد أو الوقائع كما فى :

عيناى وعيناك تقابلتا يوما
فتكلمتا .. وتعارفتا

وتآلفتا

وتخاصمتا يوما

وتصافيتا

ولكن أنى لهذا السراب الذى توارى ليسكن قلبا آخر ، وعندئذ ليس من سبيل لحفظ الحياء أو صون ماء الوجه سوى التنكر والتجاهل ولهذا لاتجدى كل السبل التى تشع بها التعبيرات (قلبك لى ، أتحدى قولى ، كاذب ، الصمت الموصول حكايات) والاستفهامات التى توحى بالدهشة ، ثم يأتى حكم التجربة :

الكون اختل

الكون اختل

والشاعر نصار عبد الله – كغيره من شعراء الوطنية – يلغى بجمر عواطفه الملتهبة وقذائف ثورته على ذلك الظالم المستبد الذى اغتصب وطنا ، وطرد بناته وأبناءه من الفلسطنيين ، ويأسى ، لأن من يدعون أشقاء نائمون ينطون فى بحور الثراء واللهو ، أو الفاقة والجبن ، كما ورد فى (نشيد فلسطينى) الذى يرسم ثلاث صور :

أولاها : صورة الوطن الجريح المسدى بدمائه ، ومازال الجرح ينزف وكل يوم جرح جديد.

وثانيها : وطنى لم يبق معه غير سلاح الحجارة ، التى بدت فيها شجاعته وإصراره على انتزاع الحرية ، وهو مشدود إلى تاريخه وإلى أمجاده فى حطين .

ثالثها : عربى تملكه الخور ، ومزقه الخلاف ، وفقد مقومات الشرف والوحدة :

جفت دمعات العرب الباكين المبكيين

على فقد عروبتهم ورجولتهم

جفت لكن ماجف

جرحك يا وطنى

الجرح المائة ، الجرح الألف الألف
ناموا عنك ... إذن فليهنأ بالنوم النوامون
وبالصوم عن الحرب الصوامون
يهونون يهونون
ولكنى وحدى .. لست أهون

وتقوى سبل الأمل تحت قذائف الحجارة من خلال صروح العزيمة :

فلتسقط كل قلاع الزيف
مهما يلتف الحبل على عنقى .. مهما يلتف
ستظل حجارة هذا الوطن المعبود تقاتلكم
فالمجد المجد لأحجار تقصفها فى صدر الغاصب كف

ويزيد من قوة التجربة وعمق الإيمان بها تلك الرتابة التى لاتغيب عن النص مبعثها تكرار القوالب التعبيرية التى تشع بقوة الإصرار على طلب الحرية وتجرى فى عروقها حرارة الثأر ، ومن تلك القوالب : (يهونون ، يهونون ، إنى أملك وطنا فى صدرى ، إنى أملك حجرا فى الكف ، من حطين ، إلى حطين ، فليلتف الحبل ويلتف ، فالمجد المجد ....)

ثم تأتى تجربة لاحقة ، وردت بعنوان (برقية من أبناء الأرض المحتلة إلى أبناء الأمة العربية) ، وهى تأكيد للتجربة السابقة ، وإكمال لمسيرتها ، إذ إنها تنعى السلاح العربى ، وتؤكد شلله ، وتندب حظ هذا الوطن بين أشقائه ، الذين تملكهم القنوط واليأس ، وكانت وطنيتهم شعارات زائفة وسراب خادع ومما ورد فيها :

أحجارنا رصاصنا ، قصاصنا ، خلاصنا
فمالكم أحزانكم غيم
لابرق ولارعد ولامطر
موتوا بصمتكم بعاركم إذن
أو مثلنا انفجروا

وفى لحظات الضعف والفاقة يتلمس المرء النجدة برفع الأكف دعاء ومناجاة لله تعالى ، مشيرا إلى لب القضية وعلة المطلب ، كما جاء فى قصيدة (دعاء) ومنها :

لاتتركنا
أدركنا
أدركنا فالأيام
هدمتنا ركنا ركنا
والجرح النازف لا يلتام

وحرارة المطلب ، وشدة الفاقة تشد المشاعر وتدفعها إلى الاستعانة بتكرار الأشكال التعبيرية طلبا للخلاص ، فإن لم يكن ، ففى الهلاك والزوال إراحة للنفس من متاعب الحياة، وتلك وسيلة للهروب من مواجهة المصير لكنها وسيلة مرضية :

لاتتركنا .. إنا نحن بنوك الأيتام
أدركنا
أو .. أو أهلكنا

وفى لحظات أخرى من الضعف قد يركن الإنسان إلى الرضى بالواقع ، أو محاولة التصبر ، كما جاء فى مقطوعة (لاتحزن) ومطلعها :

با لله لاتحزن فا لله لم يأذن

والشاعر فى هذه المقطوعة ابتعد عن المقومات الفنية للشعر وجرى فيها مجرد الواعظ معتمدا على الأوامر والنصائح :

أذعن ولاتحزن قد فاز من أذعن
واسأله بالحسنى فيجود بالأحسن

ومما يلاحظ فى هذا اقتران الطلب بعقله ، فالشكر للبقاء ، والإذعان للفوز والسؤال للأحسن ، كلها تفتقد التصوير الفنى الجيد .

ومن روائع قصائده قصيدة (مازلت وحدك) وهى تؤكد الولاء العاطفى بين الشاعر، وبين الغائب الحاضر ، الذى سكن القلب مع التفرد فى التملك والوحدة ، يؤكد هذا ويقويه التكرار الذى ورد فى :

مازلت تسكن فى ضلوع الصدر وحدك
مازلت وحدك رغم أن الموت
ما أقصاك عن عينًى وحدك

فتكرار كلمة وحدك بإيقاعها وقوة مخارج حروفها تؤكد استمرارية الحدث فضلا عن (مازلت ، قد) ومجيئ الحدث فى هيئة التخاطب وتتابعه

كأن الموت ما أنساك وعدك
ما زلت تؤنس وحشتى

وتبدو فى النص عوامل النمو والتدرج فى الولاء ، حتى خاتمة النص التى تؤكد الرباط الأبدى :

ما الذى أبقت لنا الأيام بعدك
إلاك يا محبوب وحدك

ومن قصائده التى ترفض الواقع فى بعض مظاهره الاجتماعية قصيدة (ضد الفقراء) ذات المضمون الغريب أو الفريد إذ تعد ثورة ضد الفقراء ، وتسلب الرحمة عنهم :

ليسوا أحباب الله ، فلو كان يحبهمو أغناهم
لكن شاء فأبقاهم
فقراء كما هم

ولعل الشاعر صب جام غضبه على هذه الفئة من البشر ورفض هذه الجماعة لرضاهم بالدون من العيش لذا حّملهم وزر الفاقة والمعوذة :

تعرفهم معرفة المجرم من سيماهم
لاتملك إلا أن تلعن نفسك ، أو تلعنهم حين تراهم

وتأتى السخرية الحادة فى قوله :

مبتسمين رضاء بقاضهم

اللهم ارفع مقتك أنى أشهدك اللهم أنهمو عنك بعيدون وأنك لاترضاهم

وفى القصيدة ألوان من التضمين يزيد من قوة الفكرة وجمال الصورة فى (تعرفهم من سيماهم ، قليلا ماهم)

ومن القصائد التى تأثرت بروح وعمق الدراسات الفلسفية ، التى تخصص فيها الشاعر قصيدة (متوالية) ، وهى ترسم دورة الحياة وتبرز ناموس الكون وتتابع أحداثه ، وتربط بين الكائنات فيما يسمى بوحدة الوجود ، فنرى كل مشهد مقدمة لما بعده وتسير فى حركة منتظمة خطة ومحكمة لعمارة الكون :

سحب حبلى

حين ابتردت ولدت

كان الأبناء قطرات من ماء

الأرض الطينية بئر

والأرض الرملية يمّ

حين رواها المطر الساقط فوق رباها

لمعت عيناها ففغرت فاها

وابتلعت أبناء الغيم

من ثدى الأرض الفضى

شرب العشب الماء فشب وطال

جاء غزال بعد غزال

جاءت أبقار وشياة وجمال جوعى

جاءت جنبات المرعى

وانتفخت بالعشب بطون القطعان

ثم تأتى النهاية المأساوية ترسم فى سخرية مأساة الإنسان وخداعه وشراسته : هاهم أبناء القيم المدفونون يعودون

غزلانا صغرى وقواعيد وحملان

حينئذ قهقه ذئب وعوى إنسان

ولعل الشاعر فى بيته الأخير مشدود إلى قول الشاعر العربى :

عوى الذئب فأستأنست بالذئب إذ عوى وصوت إنسان فكدت أطير

والديوان يحمل ألوانا من السخرية من نماذج بشرية مرضية ومنها قصيدة (مهلك يامولاى قليلا) ، وهى ترسم الأنانية البغيضة ، التى تسيطر على الإنسان مدفوعة بالغرور ومما يزيد من قيمة المضمون عرض الطرف المقابل لتلك الصورة ، ومنها :

إنك يامولاى إذ ترشف

تنهل ماء البحر

وأنا لا أقدر أنهل نهلك

قلبك أزلى أبدى

وفتى

وأنا قلبى مستهلك

وتبرز الشعرية فى ثوبها الصريح

معذرة فلتغفر لى جهلى

إنى أجهل جهلك

وقد تلبس السخرية ثوبا رمزيا كقصيدة (التيس والمرآة) التى تحمل صورة حماقة من يجر نفسه إلى حتفه بجهله وغروره ، ومضمونها وقوف تيس أمام مرآة ، فرأى التيس صورته

، فاعتقد تيسا آخر فنطحه فتحطمت المرآة ، وكسر قرنه وشجت رأسه ، ثم اهتز طربا ظانا حصوله على النصر وفرار التيس الآخر :

ظن التيس بأن الآخر يتحداه
ثار وهب وسب أخاه
فثار التيس وهب وسب أباه
نطح التيس التيس
قد فر التيس الرعديد أمام التيس الصنديد
لا بأس
حتى لو خلع القرن وشج الرأس
يا كل تيوس العصر
هذا ثمن النصر

ومن الأدب الرمزى أيضا قصيدة (الغزالين والأسد) وتحكى قصة غزالين افترس الذئب وحيديهما فاشتكيا إلى الأسد فكانا كمن استجار من الرمضاء بالنار إذ خدعهما بكلامه المعسول ثم افترسهما :

يالغزالتين جميلتين حزينتين
حزنكما زادكما حسنا فى عينىّ
وأنا لا أملك كى أنأى بكما من كل ذئاب الدنيا
ستصيران بأحشائى أقرب لى من كل الكون

والقصيدة رمز للشعوب الآمنة ، التى ابتليت بغاصب مستبد ، وعندما تلجأ إلى من تظنه مصدرا للعدل بمدى الخيانة والغدر ، كما حدث ويحدث الآن لبعض الشعوب . ومن الواضح ارتباط هذا اللون بخيط درامى يزيد من قيمته الغنية .

ومن القصائد الوطنية التى تبرز – فى وضوح وصدق – استغلال الأقوياء للشعوب الفقيرة ، وتستغل مواردها قصيدة (موجز تاريخ العالم) ومنها :

في كل صباح أو في كل مساء
تمتد عيون الغرباء ، نيوب الغرباء
إلى فلذات قلوب الضعفاء
تمتد شباك الصيادين إلى العصفور اللاقط
تمتد شباك التجار الجشعين إلى عرق الصيادين

سمات عامة في الديوان

لكل شاعر لغته التي جمعتها ثقافته وبيئته ، ومخزونه اللغوي نبع تستقي منه شاعريته ، كما أن لكل شاعر ثوبه الشعوري والوجداني ، ينسجه بطريقته المميزة التي نسجتها مؤثرات نفسية أو بيئية .

والشاعر نصار عبد الله في هذا الديوان حددته سمات أهمها :

أولا : غلبة الروح التشاؤمية الحزينة :

إنا في زمن يصبح فيه اللامعقول
هو المعقول
هذا زمن سيطول
هذا زمن يحصد فيه الورد
ليزرع شوك العاقول

وتلك لفحة رومانسية ، مصدرها تردي الواقع ، وتمزق الثقة بالآخرين والشعور بالاغتراب .

ثانيا : الرفض والشعور بالحرمان ، وحسبنا في هذا عنونة القصائد ودلالتها :

مازلت أقول ، الكون اختل ، مازلت وحدك ، ألقيت في اليم قلبي

ثالثا : رسم القيم التي يؤمن بها كالحرية والعدل والمساواة وذلك من خلال صور قد تميل إلى السخرية :

معذرة فلتغفر لى جهلى
إنى أجهل جهلك

أحجارنا رصاصنا
فهل رصاصكم إذن حجر

رابعا : العمق الفلسفى والتأمل الذاتى فى مضمون التجربة ومصدر ذلك الدراسات الفلسفية المتخصصة عند الشاعر .

خامسا : التضمين ، وأكثر مايكون من القرآن الكريم ، ويتميز بالتوظيف الجيد ومنه :

هذا زمن يصبح فيه الشعراء كعصف مأكول

كان ذا مرة فاستوى

تعرفهم معرفة المجرم من سيماهم
وقليلا ما هم

سادسا : تكرار الأشكال التعبيرية التى عن إيمان وتأكيد للموقف ، ومنه :

أدركنا
أدركنا فالأيام
هدمتنا ركنا ركنا
مهلك يا مولاى قليلا
مهلك يا مولاى قليلا
مهلك يا مولاى قليلا مهلك

من حطين إلى حطين إلى حطين

سابعا : الميل إلى رتابة المد الطويل من خلال حروف المد ومنه :

هذا زمن سيطول
يمتد من الحب المقهور
إلى الصد الموتور
إلى القلب المخلول
إذن فليهنأ بالنوم النوامون
وبالصوم عن الحرب الصوامون

وختاما فإن الديوان يعكس صورة نفسية لواقع الشاعر الداخلى ، ونظرته إلى الحياة والوطن، فى تأمل عميق ، وطاقة شعورية مكثفة ، كما يعكس رؤية الشاعر وثورته لتغيير الواقع الخارجى للوصول به إلى مجال ذى عقيدة مميزة وهادئة وهادفة .

المراجع والمصادر

١- إنريك أندرسون إمبرت . مناهج النقد الأدبى

ترجمة د. الطاهر احمد مكى . مكتبة الآداب القاهرة ١٤١٢هـ - ١٩٩١م .

٢- د. لويس عوض . دراسات أدبية . دار المستقبل ط الأولى القاهرة ١٩٨٩ .

٣- د. نصار عبد الله . ديوان مازلت أقول . الهيئة العامة للكتاب .